الحِجاج في الخطاب الشعري الجاهلي

. معلقة زهير بن أبي سلمى أنموذجا .

نصيرة غماري

أستاذة محاضرة

المدرسة العليا للأساتذة . بوزريعة .

لئن تنوّعت أغراض الشعر العربي القديم بين فخر وهجاء ومدح وحكمة وغيرها فإنّها تتفق في حقيقة خضوعها للشرائطية الإنتاجية حيث أسهم السياق الخارجي (الزمان والمكان) في صياغتها و تصنيفها بشكل مباشر؛ ذلك أن ارتباط الفرد بالقبيلة أدّى إلى التزامه أخلاقيا بمبادئها ومن هنا تحددت وظيفة الفرد ـ الشاعر اتجاهها فظهرت أغراض شعرية برزت فيها الأنا ـ الجماعة بوضوح ؛ الأمر الذي جعل الشاعر يتبوّأ مكانة مميّزة إذ تحدّدت " في كونه رجلا يتميّز بمعرفة وعلم يمكنانه من أن يتغنّى بأمجاد قبيلته ، فيذكر مآثرها ويهجو أعداءها ويدافع عنها متصدّيا للشعراء الذين يعادونها ؛معتبرا ذلك ضرورة لا مناص منها .ولذلك فإنه مفخرة من مفاخر هذه القبيلة وموضع اهتمام كبير من لدنها [1]

غير أن هذه الأنا الجماعية لم تكن وحدها في الساحة، حيث علت بعض الأصوات الممجِّدة للأنا الفردية فرجحت الكفة لصالح الذات وتداعت لرغباتها الشخصية؛ فتغزلت ورثت ومدحت للتكسّب ومجّدت ذاتها كامرئ القيس والنابغة الذبياني وعنترة والخنساء والشنفرى الأزدي.

ومن هنا أطّرت الشعر العربي القديم ثنائية قامت على نزعتين :الأنا الجماعية التي مثّلها في الشعر الجاهلي عمرو بن كلثوم والأنا الفردية ، التي يمكن تصنيفها إلى أنا فردية منتمية للقبيلة و أنا فردية رافضة لهذا الانتماء القَبَلي، أطلق عليها أدونيس "فروسية اللاانتماء ، أورفض رابطة الدم من أجل إقامة رابطة من نوع آخر قد تكون النواة العربية الأولى للرابطة الطبقية وتتمثل في الشعراء . اللصوص والصعاليك والغاضبين بعامة . ولا تستند إلى شعور بالواجب، بل إلى الفردية التي تحسّ إحساسا طاغيا أنها قادرة على هدم قانون الضرورة وتحقيق ما يعتبره العقل مستحيلا " [2] ومن الأمثلة المصوِّرة لهذه الأنا الفردية شعر الفروسية حيث نشهد توظيفا مكثفا لضمير المتكلم

على حساب " النحن " وإن وظّفت الضمائر الأخرى فلتكون خادمة له (ضمير المتكلم)كما تشير أبيات عنترة :

هلا سألت الخيل يابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

إذ لا أزال على رِحالة سابح نَهْد تعـاوَرُهُ الكماة مكلَّم

طورا يجرِّد للطّعان وتارة يأوي إلى حصد القسيّ عرمرم

يخبرك من شهد الوقيعة أنّني أغشى الوغى وأعفّ عند المغنم

فهذه الأبيات تحيل بشكل صريح إلى الذات المتكلّمة وهو الشاعر . المحاجج لصالح فروسيته وهو لم يستدع الآخر إلا ليكون شاهدا على هذه السيادة المنتزعة في ساحة الوغى؛ذلك أن المعاينة تقطع الشك، فيسلّم المتلقي الخاص (عبلة) والعام بصدق الدعوى دون مناقشة

ولقد شفى نفسي وأذهب سُقمها قيلُ الفوارس ويْك عنتر أقدم

والخيل تقتحم الخَبار عوابسا من بين شيظمة وآخر شيظم

ذُلُل ركابي حيث شئت مُشايعي لُبّي وأَحْفزه بأمر مبرم

إن ما كان يعني عنترة في المقام الأول هو أن تكون فروسيته حجة داحضة لبعض أعراف المجتمع الجاهلي التي عانى منها شخصيا ممثلة في مبدأ استعباد أبناء الإماء وحرمانهم من النسب؛ ذلك أن عنترة أبطل على مستواه الشخصي هذا المبدأ

وهاهنا تطرح قضية حيوية هي مدى ارتباط القوانين التي استنتها القبيلة بالشعر الجاهلي ؟إنّ عملية استقرائية للنصوص الشعرية يكشف عن اختلاف الضوابط الأخلاقية التي حكمتها حيث تباينت بين الدعوة إلى مكارم الأخلاق (الإغاثة ودفع الضيم والكرم ..) والدعوة إلى الأخذ بالثأر و المجون والهجاء الذي غالبا ما أسهم في تأجيج الحميّة وإثارة النعرات وترسيخ العصبية القبلية في المجتمع.

وفي خضم هذه الأوضاع الإجتماعية تعالت بعض الأصوات المطالبة بتحكيم العقل و ترجيح كفة المنفعة على المضرّة تجسّدت في شعراء الحكمة وتشكّلّ معلّقة زهير بن أبي سلمى مثالا طيّبا لهذا التوّجه الإصلاحي،إذ تعدّ خطابا حجاجيا بالدرجة الأولى بالنظر إلى متلقيها أي المجتمع الجاهلي الذي

اشتهر بما سمي بـ "أيام العرب" التي لا تقيم وزنا للعواقب الوخيمة التي تؤثر في المجتمع بكامله ولوقت طويل لأسباب تراوحت بين نعرة و سبي ومنع ماء وحماية عرض وثأر ..إلخ وبقدر ما كانت هذه الأوضاع متجذِّرة فيه كانت المحاجة بما تمتلكه من آليات الأقيسة و الاستنتاجات حاضرة في شعر زهير؛ وخاصة معلّقته الأمر الذي جعلنا نعدّها خطابا حجاجيا هدفه في المقام الأول ترسيخ مبدأ جديد في المجتمع وإقناع المتلقي به ما دام الخطاب الحجاجي "خطابا مبنيا وموجّها وهادفا ،مبنيا بناء استدلاليا يتم فيه اللجوء إلى الحجة و الاستدلال والمنطق والعقل ،وموجها مسبقا بظروف تداولية تدعو إليها إكراهات قولية أو اجتماعية أو ثقافية أو علمية أو عملية أو سياسية ،تتطلّب الدفاع عن الرأي أو الانتصار لفكرة ،أو تتطلب نقاشا حجاجيا يلامس الحياة الاجتماعية أو المؤسساتية ،بهدف تعديل فكرة أو نقد أطروحة أو "جلب اعتقاد أو دفع انتقاد" " 3 بل نذهب أبعد من ذلك باعتبارنا إياها خطبة اجتماعية– إصلاحية لم تخل من خطابية حيث شاركت الخطبة في موضوعها ومقصدها واستراتيجيتها .

إن هذه القصيدة–الخطبة تستمدّ أهميتها من الواقع الجاهلي نفسه الذي مجّد الشعروالشعراء وأكسبهم سلطة ووصاية على مجتمعهم لم تول لغيرهم، فإذا كان الشعر المسجّل لمفاخر القبائل ومحامد الأفراد له خطره وقيمته "عند القبائل و الأفراد الممدوحين ،فقد كان له من الخطر و القيمة عند الشعراء المادحين أنفسهم ما يضارع ما كان له عند الممدوحين أو يزيد .فقد كان هذا الشعر عند غير المكتسبين بالمدح واجبا قوميا تفرضه على الشاعر طبيعة ارتباطه بقبيلته، أ و واجبا أخلاقيا تمليه عليه مآثر سلفت من صاحبها للقبيلة أو للشاعر نفسه "4

1 - تعيين علامات التلفّظ(المتكلم –العارض /المتلقي / السياق)

إنّ المقطع الشعري الممتد من البيت 31...47 يشير صراحة إلى شخص المتكلّم المحاجج. وهو بما يمثله من خبرة طويلة اكتسبها من الحياة التي خبرها (80 سنة) يكوِّن لنفسه إيتوسا جيدا ليفرض سلطته الخطابية على المتلقين وبالتالي التأثير فيهم؛ ذلك أن العلاقات الحجاجية تقوم على ثلاثة عناصر حدّدها أرسطو في"الإيتوس (الصفات المتعلّقة بالمتكلّم) الباتوس (التأثير في الآخر)و اللوغوس (الخطاب أو اللغة أو العمليات الاستدلالية العقلانية داخل الخطاب) "5.

إنّ المتكلم –المحاجج يبدو أنه يعي تماما ضرورة اكتساب ثقة المتلقي كشرط تمهيدي ليصغي إليه ومن ثم يعمل بتوجيهاته ؛الأمر الذي دعاه إلى الإكثار من الحكم المستخلصة من الواقع الذي يعيش فيه المتلقي بعيدا عن عالمي التنظير و المثل و التي يجسدها خير تجسيد البيت 23:

جريئ متى يُظلَم يعاقِب بظلمه سريعا ،و إلا يُبد بالظلم يَظلِم

والبيت 41

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلم

إن مبدأ مبادرة الغير بالظلم الذي جاء في البيت 23 **وصفيا تقريريا حيث القصد من هذا** الفعل اللغوي هو تقرير المضمون القضوي نفسه المتمثل في جملة من الصفات الإيجابية التي اتصف بها حصين بن ضمضم باستثناء صفات إضمار الغدر و الضغينة والعصبية (18-19-20) فقد شبّهه بأسد له لبدتان لم تقلّم براثنه ،يريد أنه لا يعتريه ضعف ولا يعيبه عدم شوكة وهو شجاع متى ظُلِم عاقب الظالم بظلمه سريعا ،وإن لم يظلمه أحد ظلم الناس إظهارا لغنائه وحسن بلائه و في البيت 41 جاء فعل الكلام شرطيا – إنجازيا حيث القوة المتضمنة في فعل القول هي إسداء النصح بأخذ الحيطة لاتقاء ظلم الغير و تجنب صفة المفعولية .إنّ هذا المبدأ على الرغم من سلبيته الظاهرة تخفي حقيقة متوارية لكنها حاسمة في مجتمع يقوم على الغارة والسطو ؛ذلك أن المقصد الأساسي من صفة الظلم هنا هو **مقتضاها** المتمثل في القوة و البأس كشرط لضمان الحياة الكريمة وتجنب الذل والهوان المنجرّين عن الاعتداء على الأملاك الخاصة و الشرف فكلما كانت للمرء هيبة و جسارة كلما اتقاه الغير وأمن شرّهم.

وبهذا يتأكد لنا أنه لا يمكن تجاوز البعد السياقي في النص التواصلي لأنه " لا يتمّ التفكير في الفعل الكلامي بمنظور قصدي إلا في إطار سياق يحدد قيمته ،فالفعل الكلامي لا يعبّر عنه بواسطة الجملة فقط ،ولكن يعبّر عنه في سياق معيّن وفق المعادلة التالية :قول + سياق = رسالة ولمعرفة الرسالة لا يجب فقط معرفة اللغة بل يجب كذلك معرفة السياق " 6

إنّ إدراج مثل هذه الحكم في القصيدة – الخطبة والتي تنتزع مصداقيتها من واقع المتلقين تندرج ضمن قائمة "**الأفكار العامة** "Topoi " التي " هي ملتقى الأخلاق المقبولة في مجتمع ما ،خلال حقبة معيّنة ،حيث تقوم بدور المسلّمات أو المبرهنات كما في الرياضيات ،لا تقبل النقاش والجدال في كثير من الأحيان ،ولا تخضع للتحليل العلمي و التمحيص الدقيق ،ولا تقوم على قواعد مضبوطة ،بقدر ما تقوم على أنساق فكرية ،وعلل تمتزج فيها الأقوال بالأفعال ،و المبادئ بالمسلمات،و الأقوال الكونية بالأقوال السياقية الظرفية ...كلها تتفاعل لتؤسّس أحكام القيمة " 7 وتعمل في ذات الوقت على تبرير أحكام المتكلم–المحاجج وآرائه ومن ثم ترسيخ مصداقيته عند الجمهور و الاقتناع بما يقول و العمل بما يرتئيه مادام لا يتكلّم من فراغ بل كل أقواله تصدر عن تجربة و خبرة و هو لهذا يحرص على تأكيد

هذه القاعدة فيما يطلقه من أحكام قيمة .ولقد وردت أول إشارة إلى هذه القاعدة –الخبرة و التجريب – عند حديثه عند تقبيحه للحرب :

– وما الحرب **إلا ما علِمتُم وذقتُمُ** وما هو عنها **بالحديث المُرجَّم**

فما أقوله عن الحرب التي لاتنتج إلا الدمار و الوبال ليس من أحكام الظنون بل هذا ما شهدت عليه الشواهد وعاينتموه بأنفسكم من خلال التجربة . وأن القصيدة قدوظفت من بين التقنيات اللغوية الحجاجية ما يسمى **بالحجاج بواسطة تحصيل الحاصل** حيث من ضروبه " أن المرسل قد يحيل ذهن المرسل إليه إلى السمات اللازمة للدال المعروفة عنده ،دون أن يصرّح بها ،لأن المرسل إليه يدرك حجة المرسل ولا يقتصر التحصيل على نفس السمات فحسب ،بل يتجاوز إلى توظيفهافي السياق الذي يشير إليه" 8 إن الفعلين اللذين وظفهما زهير " **علم**" و "**ذاق**" يصنفان ضمن الأفعال الدالة على المعرفة و ليس الاعتقاد وما من شك أن لهذا الاختيار **وظيفة توجيهية** حيث تعدّ المعرفة غير قابلة للنقاش عكس الاعتقاد القابل للخطأ حيث إنّ " التمييز بينهما ليس تمييزا ذا طابع فلسفي فحسب .فهذا التمييز يوجد أيضا في الحياة اليومية فإذا قال زيد "أعتقد أنّ بكرا رحل " فليس قوله البتة كالقول "أعلم أن بكرا رحل " فعندما يقول زيد "أعتقد أن ..." فإنه يستنتج أو يستدلّ عموما على أن بكرا رحل أو قيل له ذلك ،في حين أنه عندما يقول "أعلم أنّ..." فلأنه عموما رأى "بكرا " وهو يرحل أو أن أحد الثقات قال له إنه رأى ذلك (...) ويمكن أن نبيّن االفرق بين الاعتقاد والمعرفة بواسطة الاستدلال المنطقي ،فالاعتقاد يمكن أن يستنبط من المعرفة والعكس غير صحيح .وعلى هذا النحو ،لو كان "زيد" يعلم أن "بكرا رحل" لكان اعتقاده بأن بكرا رحل صادقا ،إنما لو كان زيد يعتقد أن "بكرا رحل " لما كان علمه صادقا" 9 وما قلناه عن فعلي "علم" و" ذاق "ينسحب أيضا على فعل "رأى "الذي يدل على المعرفة إذ جاء متصدرا مجموع الأبيات ذات التركيب الشرطي (33–47)حيث ورد في البيت 33 صريحا وفي بقية الأبيات مقدّراوهذابواسطة عطفها على البيت 33 .

رأيت المنايا خبطَ عشواءَ من تصب ثُمتْهُ ومن تخطِئ يعمَّر فيهرَمِ

بتقدير :

و رأيت أنّ من لم يصانع ...

تكمن أهمية هذه الأفعال حجاجيا في كونها مطابقة للحقيقة الإنسانية حيث لا يمكن لأي متلق مهما كان نوعه أن يخطِّئ أقواله :

"من أصابته المنايا أهلكته ومن أخطأته بلغ الهرم "

" اضطرارالإنسان أحياناإلى اللجوء إلى المداهنة و المداراة لتجنب بعض الأضرار "

"وجوب إنفاق المال في سبل الخير لتحقيق المصلحة العامة التي تنعكس على فاعلها بالمدح و الثناء "

"الوفاء بالعهد و عدم نقضه يعصمان من الذل "

"الموت قضاء لا يمكن تجنبه "

" ضرورة وضع الإحسان في موضعه المناسب و إلا انقلب إلى إساءة "

"من أبى الصلح وهو كريم ذللته الحرب و أهانته فسعى إليه وهو ذليل"

"من لم يحم عرضه وقع عليه الظلم "

" الأخلاق لا تخفى و التخلق لا يبقى "

" الإنسان مخبوء تحت لسانه "

" المرء بقوله وفعله"

" وجوب تعهّد النفس بالإصلاح قبل المشيب "

" الإكثار من السؤال يولد المهانة "

إنّ التمعن في هذه الحكم أو الأفكار العامة (المعتقدات الجماعية) من شأنه أن يؤدي إلى نتيجة واحدة تعمل على تدعيم القضية المعروضة "السلم خير" و دحض القضية –الضد " الحرب شر "؛ ذلك أنها تدل من خلال المفهوم و مفهوم المخالفة المتضمني ن فيها أن رعاية المصلحة العامة تستلزم رعاية المصلحة الخاصة حيث إن العام يتضمن الخاص بالضرورة وبالتالي الدعوة إلى السلم يستفيد منها المجتمع ككل بما فيه الداعي إليه والحرب يتضرر منها الكل بما فيهم الداعي إليها.

وتؤكد القضيتان بواسطة التجسيد الفعلي لهذه القيم من خلال السيدين اللذين استحقا المدح و الثناء بفعالهما القوليةوالعملية :

– يمينا لنعم السيّدان وجدتما على كلّ حال من سحيل ومُبْرَمِ

– تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانَوا ودقُّوا بينهم عِطر مَنشِم

– وقد قلتما :إن ندرِك السِّلم واسعا بمال ومعروف من القول نَسلَم

– فأصبحتما منها على خير موطِنٍ بعيدين فيها من عقوق ومأثَم

– عظيمين في عُلْيا معدٍّ هُديتما ومن يستبح كنزا من المجد يعظُم

ومن خلال حصين بن ضمضم الرافض للصلح و المضمر للغدر :

– وكان طَوى كَشْحا على مُستَكِنّةٍ فلا هو أبداها ولم يتقدَّم

– وقال سأقضي حاجتي ثم أتَّقي عدوّي بألف من ورائي مُلجَم

– فشدً فلم يُفزِعْ بيوتا كثيرة لدى حيث ألقتْ رَحْلَها أمّ قَشعَم

– لدى أسد شاكي السلاح مقذَّف لـه لِبَـد أظفـارُه لم تُقَلّم

– جريئ متى يُظلَم يعاقِب بظلمه سريعا ،و إلا يُبد بالظلم يَظِلم

إنّ السيدين الممدوحين شكّلا في تصور زهير البطل الجماعي المخلِّص الذي يظهر عند الحاجة الملحّة لينجز ما عجز عنه الآخرون (دفع الديات حقنا للدماء) وفي الجهة المقابلة شكّل "حصين بن ضمضم " الذات السلبية المدمّرة الداعية إلى التشبث بالعرف السائد (الأخذ بالثأر) ومن ثمّ حرب الإبادة .

ولهذا نلاحظ أن أغلب القول دار على السيدين بصيغ الخطاب المتنوعة حيث ابتدأ بـ **ضمير الخطاب المثنى** (وجدتما ،تداركتما ، قلتما ،أصبحتما)وتارة **بضمير الغيبة** (7 و 8) ثم يعود إلى **ضمير الخطاب** لكن هذه المرة **بصيغة الجمع** (تلادكم) لإفادة مزيد تعظيم وإجلال لهما.ثم عاد إلى ذكر السيدين بواسطة إدراجهما ضمن قائمة المصلحين الداعين إلى نبذ الحرب وحقن دماء الأبرياء بواسطة توظيفه لضمير الغيبة الجماعي (26 –30)؛حيث أشاد بمن آثروا الصلح على الحرب ولم ينصاعوا وراء العصبية القبلية التي دعا إليها حصين بن ضمضم وكاد يشعل فتيل الحرب من جديد (18) .

و لتفادي اعتراض المتلقي و عدم تسليمه بالقضية الجديدة التي يعرضها (تزيين الصلح و السلم) فإن الشاعر أنزل المتلقي منزلة المنكر الجاحد لهذا المبدأ الجديد ؛ الأمر الذي دعاه إلى استثمار الوقائع التاريخية(عاقبة قوم عاد) و الراهنة (ما عهدوه من ويلات الحرب)وهو ما يوظّف هذه الوقائع إلا ليجعل منها **حججا نفعية** إقناعية تستمد مصداقيتها من مبدأ النفع و الضرر بالنسبة إلى المجتمع عامة حيث ينبغي أن نفعل ما ينفعنا ونمتنع عما يضرنا (الأبيات 13–17) ومن شأنها أن تحدّد طبيعة الحجاج الذي تقوم عليه هذه القصيدة –الخطبة حيث تصنفها ضمن الحجاج **المعياري** normatif و ليس الوصفي " أي الحجاج الذي يتضمّن حكما تقييميا و يوجِّهه بوجب هذا الحكم أفعال المتلقي أي أن المحاج لا يريد فقط أن يقنع المتلقي بصحة رأي ما ولكنه يريد أيضا أن يحمله على فعل ما "10 وهذا بتغيير سلوكه و تعديله ،وهذا بتوظيف جملة من الكلمات ذات التقويم الأخلاقي مثل "نعم" الذي جاء مؤكّدا و"خير موطن"و "عظيمين" و "كرام"(8 .11. 12 . 36) .

2 . تحليل الحركة الحجاجية للقصيدة:

جاء النص مبنيا في شكله العام على قضيتين متقابلتين ؛فهناك النموذج الإيجابي الذي يعدّ سابقة في المجتمع الجاهلي وهناك النموذج السلبي المتأصل في هذا المجتع ،لذا ،نرى حرص الشاعر– المحاجج على إبراز هذا النموذج الجديد على امتداد مساحة الخطاب إذ نجده في بدايته –إذا ما

استبعدنا المقدمة الطللية التي تعد عرفا متبعا و مجرد تقليد شكلي للقصيدة الجاهلية لا علاقة له بالمقصد الأصلي الذي تستهدفه القصيدة – ووسطه وآخره بينمااكتفى بعرض النموذج السلبي مرة واحدة في وسط القصيدة وفق أسلوب سردي يوافق مخيّلة المتلقي التي اعتادت عليه. وتأسيسا عليه فقد جاء الفضاء الدلالي للقصيدة –الخطبة مزدوجا من حيث الدلالة فهناك الفضاء الدلالي الإيجابي الناتج عن إيثار الصلح و التغلب على الحميّة و العصبية القبلية وهو فضاء السّلم وقد ورد مضمرا دلت عليه الاقتضاءات المتضمنة في الألفاظ ومفهوم المخالفة و الفضاء الدلالي السلبي الناتج عن العصبية القبلية و هو الفضاء المصرّح به لتجسيد قبحه والتنفير منه وفق الاستدلال الآتي :

- مقدمة كبرى :الحرب سبب الشرور الحاضرة
- مقدمة صغرى : العصبية القبلية داعية إليها
- النتيجة : العصبية القبلية سبب الشرور الحاضرة

انطلاقا من هذا الاستدلال (القياس المضمر) نتوصل إلى القضية (المعطاة) الجديدة التي يطرحها النص كبديل للقضية القائمة (العصبية القبلية سبب الشرور الحاضرة) و يحاجج لصالحها :

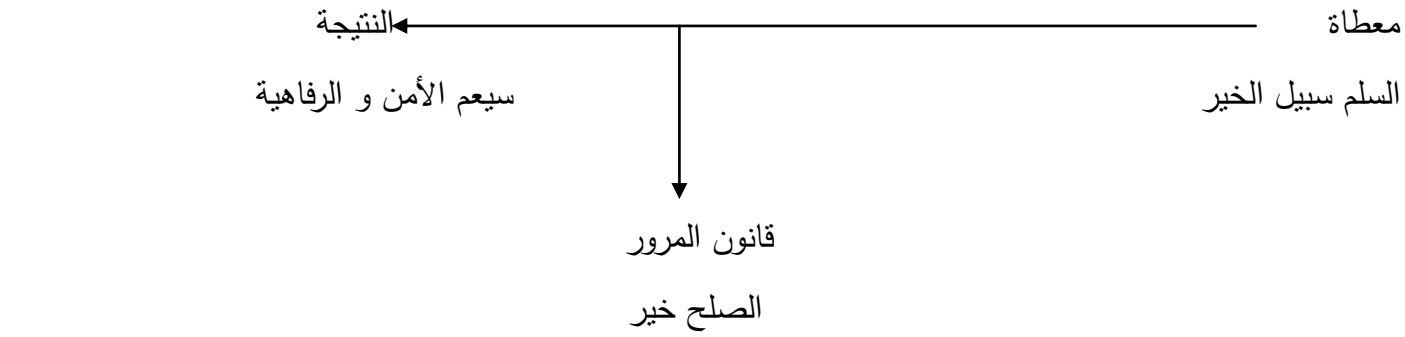

إنّ الملاحظ من خلال استعارتنا للخطاطة التي اقترحها تولمان أن قانون المرور " يقدّم للمعطاة **المعنى الحجاجي** الذي لم تكن تمتلكه من قبل، وهذه مسلّمة أساسية في المحاجة الخطابية حيث تستمد المعطاة بواسطتها توجهها نحو النتيجة؛ حيث إنها تعبّر عن حقيقة عامة من النوع المثلي proverbial المعزو إلى متلفظ جماعي " نعلم أنّ .." و الذي غالبا ما يكون ضمنيا . كما أنها تسمح للمحاجِج بإسناد أقواله إلى مبدأ أو مواضعة مقبولة في المجتمع الكلامي ويطلق على هذه المبادئ مصطلح الأفكار العامة " 11. و قد تضمنت هذه القضية الحجاجية الكبرى بنيتين حجاجيتين صغريين الأولى نستدل بها على القضية الجديدة و الثانية على القضية القديمة .وقداعتمدت كل واحدة منهما على قياس مضمر وفق ما يلي :

مقدمة كبرى :الصلح يدعوإلى السلم

مقدمة صغرى :هرم بن سنان و الحارث بن عوف مصلحان

النتيجة : هرم بن سنان و الحارث بن عوف داعيان إلى السلم

و مقدمة كبرى :العصبية تدعو إلى الحرب

مقدمة صغرى :حصين بن ضمضم متعصّب

النتيجة : حصين بن ضمضم داع إلى الحرب

لقد جاء القياس الثاني عاضدا للقياس الأول حيث يعمل كصورة مقابلة لصورة القياس الأول و هذا بتقبيح صورة الحرب أكثر.

لقد وظّف الشاعر – العارض حججا واقعية من شأنها أن تؤثر في المتلقي الذي عانى من ويلات العصبية القبلية و تبعاتها السلبية و ليعمّق الفعل التأثيري لهذه الحجج يورد الحرب وفق أسلوب تصويري استعاري مخاطبا خيال المتلقي حيث تعدّ الاستعارة من الوسائل التي يعوّل عليها كثيرا في توسيع الحجاج لما توفّره من قدرة على الإفهام و الإقناع وبما تثيره من إيحاءات ودلالات تنتجها تداعيات الصورة المجازية.

إنّ القيمة الحجاجية للاستعارة ليست بأيّ حال نقل اسم لاسم و استعارته إياه بل هي شيء أعمق من هذا ؛حيث تقيّد ادعاء معنى الاسم المستعار للشيء المستعار له أي نقل المعاني التي يختصّ بها المستعار للمستعار له.و لا يخفى ما لهذه الطريقة في الوصف من فعالية في استحضار الصورة في ذهن المتلقي و التأثير فيه بأقلّ تعبير ممكن 12

وما الحرب إلا ما علِمتُم وذقتُمُ وما هو عنها بالحديث المُرجَّم

– متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتَضْرَ إذا ضرَّيتُموها فتَضْرَمِ

– فتعرُكُكم عركَ الرّحى بثِفالها وتلقَح كِشافا ثم تُنْتَجْ فتُتْئِمِ

– فتُنْتِجْ لكم غلمانَ أشأَمَ كلّهم كأحمرِ عادٍ ثم تُرضِعْ فتَفْطِمِ

– فتُغْلِلْ لكم ما لا تُغِلُّ لأهلها قرى بالعراقِ من قَفِيزٍ ودِرهَمِ

فالشاعر يستعير للحرب أقبح الصفات" وجعل صنوف الشر تتولد من تلك الحروب بمنزلة الأولاد الناشئة من الأمهات ،وبالغ في وصفها باستتباع الشر شيئين : أحدهما جعله إياها لاقحة كشافا ،و الآخر إتآمها ".13 كما استعار لها من المرأة المربية لأولادها صفتي الإرضاع و الفطام ليعبّر بذلك عن شؤم الحرب و انعكاساتها السلبية على من ينشأ بين أحضانها.وهما نقول: إنه قد استثمر المحاجة بالنتيجة l'Argumentation par la conséquence أو الحجة البرغماتية Argument pragmatique التي عرّفها برلمان وتيتيكاه بأنها "الحجة التي تسمح بتقويم عمل ما أو حدث مابالنظر إلى ما يترتّب عليه من نتائج إيجابية أو سلبية" 14 والاستعارة هنا كفيلة بإثارة مشاعر

الاشمئزاز من الحرب؛ الأمر المؤدي إلى مراجعة القوم موقفهم منها خاصة أن الشاعر حمّلهم مسؤولية ما يحدث لزوجاتهم من سبي وترمّل وأبنائهم من تشريد ويتم (الأبيات السابقة :20 .21. 22 .23) :

ومن بين الحجج الموظفة أيضا اعتماده على بعض البنيات الخارجية الداعمة للقضية الجديدة ممثلة في **المثل** الذي يستمد مصداقيته وقوته الحجاجية من التاريخ مثل " **عطر منشم** " الذي قيل فيه أنه اسم امرأة عطارة اشترى قوم منها جفنة من العطر وتعاقدوا وتحالفوا وجعلوا آية الحلف غمسهم الأيدي في ذلك العطر ،فقاتلوا العدو الذي تحالفوا على قتاله فقتلوا عن آخرهم ،فتطير العرب بعطر منشم و سار المثل به ، وقيل بل كان عطارا يشتري منه ما يحنط به الموتى فسار المثل به "15

–تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانَوا **ودقُّوا بينهم عِطر مَنشِمِ**

و كذلك التطير بعاقر ناقة صالح . عليه السلام . الذي جلب الدمار لقومه كلهم .

فتُنْتِجْ لكم **غلمانَ أشأَمَ كلّهم كأحمرِ عادٍ** ثم تُرضِعْ فتَفْطِمِ

ومن الإقناعيات اللغوية بالإضافة إلى المجاز التي استثمره ا هذا الخطاب الحجاجي القسم في البيت 1و 2 والبيت 18 لما للقسم من قيمة عاطفية ترتبط بالجانب الروحي للمتلقي ومعتقداته حيث يفترض ألا يلجأ المتكلم إلى القسم إلا في الأمور العظيمة لنفي الريبة و الشك ولتأكيد صدق ما يقول (7 .8)هذا بالإضافة إلى التوكيد بكل أنواعه حيث لا يخفى دوره الحجاجي المتمثل في "توجيه القول والمقول معا ،والمقصود بالمقول موضوع الكلام وبالقول مدر حضور الذات القائلة في كلامها"16 .

وفي الختام يمكننا القول إن هذه القصيدة –الخطبة لاتطرح قضية وصفية وإنما عملت على طرح قضية بديلة ذات بعد إصلاحي–معياري ينبذ العصبية القبلية المتجذرة في المجتمع الجاهلي آنذاك وإرساء قيمة جديدة أساسها تحكيم العقل و الصالح العام .

ملحـق :

معلقة زهير بن أبي سلمى

1 –أمن أم أوفى دمنة لم تكلّم بحومانة الدّرّاج فالمتثلثم

2. ودار لها بالرقمين كأنها مراجيع وشم في نواشر معصم

3 بها العين و الأرآم يمشين خلفة وأطلاؤها ينهضن من كلّ مجثم

4 . وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم

5. أثافي سعفا في معرّس مرجل ونؤيا كـجذم الحوض لم يتثلّم

6 ـ ظهرن من السوبان ثم جزعنه عـلى كلّ قيني قشيب ومفأم

7 . فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

8 –يمينا لنعم السيّدان وجدتما على كلّ حال من سحيل ومُبْرَمِ

9–تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانَوا ودقُّوا بينهم عِطر مَنشِم

10–وقد قلتما :إن ندرِك السِّلم واسعا بمال ومعروف من القول نَسلَم

11– فأصبحتما منها على خير موطِنٍ بعيدين فيها من عقوق ومأثَم

12– عظيمين في عُلْيا معدٍّ هُديتما ومن يستبح كنزا من المجد يعظُم

13– تعفّى الكُلومُ بالمئين فأصبحت ينجِّمها من ليس فيها بمجرِم

14– ينجّمها قوم لقوم غرامة ولم يُهَرِيقوا بينهم مِلء مِحجَم

15– فأصبح يجري فيهم من تِلادِكم مغانمُ شتَّى من إفال مُزَنَّم

16– ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان هل أقسمتم كلَّ مُقْسَمِ

17– فلا تكتُمنَّ اللهَ ما في نفوسكم ليخفى ومهما يُكْتَمِ اللهُ يَعلَمِ

18– يُؤخَّرْ فيوضَع في كتاب فيُدَّخَر ليوم الحساب أو يعجَّلْ فيُنْقَمِ

19– وما الحرب إلا ما علِمتُم وذقتُمُ وما هو عنها بالحديث المُرجَّم

20– متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتَضْرَ إذا ضرَّيتُموها فتَضْرَمِ

21– فتعرُككُم عركَ الرّحى بثِفالها وتلقَح كِشافا ثم تُنْتَجْ فتُتْئِمِ

22– فتُنْتِجْ لكم غلمانَ أشأَمَ كلّهم كأحمرِ عادٍ ثم تُرضِعْ فتَفْطِمِ

23– فتُغْلِلْ لكم ما لا تُغِلُّ لأهلها قرى بالعراقِ من قَفِيزٍ ودِرهَمِ

24– لَعمري لنعمَ الحيِّ جرَّ عليهِمُ بما لا يُؤاتيهم حَصينُ بنُ ضَمضم

25– وكان طَوى كَشْحا على مُسْتَكِنّةٍ فلا هو أبداها ولم يتقدَّم

26– وقال سأقضي حاجتي ثم أتَّقي عدوّي بألف من ورائي مُلجَم

27– فشدَّ فلم يُفزِعْ بيوتا كثيرة لدى حيث ألقتْ رَحْلَها أمّ قَشعَم

28– لدى أسد شاكي السلاح مقذَّف لـه لِبَد أظفارُه لم تُقَلّم

29– جريئ متى يُظلَم يعاقِب بظلمه سريعا ،و إلا يُبد بالظلم يَظلِم

30– دعوا ظِمأهم حتى إذا تمّ أوردوا غمارا تَفرّى بالسلاح و بالدم

31– فقضّوا منايا بينهم ثم أصدروا إلى كلإٍ مستوبِل متوخّم

32– لعمرك ما جرّت عليهم رماحهم دم ابن نهيكٍ أو قتيلِ المثلّم

33– ولا شاركتْ في الموت في دم نوفل ولا وَهَبٍ منها ولا ابن المخزَّم

34- فكلاً أراهم أصبحوا يعقلونه صحيحاتِ مالٍ طالعات بمَخْرِمِ

35- لحيّ حِلال يَعصِمُ الناسَ أمرُهُم إذا طَرَقَتْ إحدى الليالي بمُعظَمِ

36- كِرام فلاذو الضِّغْنِ يدرك تَبْلَهُ ولا الجارِم الجاني عليهم بمُسلَمِ

37- سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبـا لك يسأم

38- و أعلم ما في اليوم و الأمسِ قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عمِ

39- رأيت المنايا خبطَ عشواءَ من تصب تُمتْهُ ومن تخطِئ يعمَّر فيهرَمِ

40- ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرَّسُ بأنيابٍ ويوطَأ بمَنسِمِ

41- ومن يجعل المعروف من دون عِرضِهِ يَفِرْهُ ومن لا يتَّقِ الشتم يُشتَمِ

42- ومن يكُ ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمَمِ

43- ومن يوفِ لا يُذمَم ومن يُهدَ قلبُه إلى مطمئِنِّ البِر لا يتَجَمجَمِ

44- ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلّمِ

45- ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم

46- ومن يعص أطراف الزِّجاج فإنه يطيع العوالي ركِّبت كلّ لَهذَمِ

47-ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يُهدَّم ومن لا يظلِم الناس يُظلم

48- ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لم يكرّم نفسه لم يكرَّمِ

49- ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلَمِ

50- وكائن ترى من صامت لك مُعجِب زيادته أو نقصه في التكلّمِ

51- لسان الفتى نصف ونصف فؤاده غلم يبقَ إلاّ صورة اللحم و الدم

52- وإنَّ سفاه الشيخ لا حِلم بعده وإنّ الفتى بعد السفاهة يحلُم

53- سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن أكثر التسآل يوما سيُحرَمِ

الهوامش

*شارك هذا العمل في أعمال الملتقى الدولي السابع لعلم النص «تداولية الخطاب الشعري «2008

1. أمجد الطرابلسي: نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة ،ترجمة إدريس بلمليح ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ، المغرب ط 1 1993 ،ص 111 نقلا عن رضوان ابن عربية: مساءلات للشعرية العربية(في ضوء "الثابت والمتحوّل" لأدونيس)، ط1 ،2007

2 . أدونيس: مقدمة للشعر العربي ،دار العودة ،بيروت، لبنان،ط4 .1983، ص19

3-Christian Plantin :Essais sur ‘argumentation p146 نقلا عن د-عبد السلام عشير:عندما نتواصل نغير- مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج – أفريقيا الشرق2006 ص128

4-ناصر الدين الأسد :مصادر الشعر الجاهلي ،دار الجيل بيروت 1966 ص113

5 -عبد السلام عشير:عندما نتواصل نغير-مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج -ص205

6–المرجع نفسه ،ص101

7– المرجع نفسه ص 133

8 . عبد الهادي بن مظفر الشهري :استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ,دار الكتاب الجديد المتحدة ط 1 ،2004 ص 491

9– آن روبول و جاك موشلار : التداولية اليوم –علم جديد في التواصل –تر:دسيف الدين دغفوس / د محمد شيباني ،المنظمة العربية للترجمةط1 2003 ص 130–131

10– كورنيليا فون راد –صكوحي: الحجاج في المقام المدرسي منشورات كلية الآداب منوبة 2003 ص 131

11- **Christian Plantin: l'argumentation** , Editions du Seuil 1996 pp25 -26

12 أنظر بحث تعليمية النص الحجاجي **تعليمية النص الحجاجي *في كتاب:*"المشوق في الأدب والنصوص والمطالعةالموجهة"للسنة الأولى من التعليم الثانوي(جذع مشترك آداب) ملتقى مخبر اللغة العربية**

13– الزوزني :شرح المعلقات السبع ،مكتبة المعارف بيروت 1985ص148

14-Chain Perelman & Lucie Tyteca : Traité de l'argumentation, Editions de L'Université de Bruxelles , Edition,2000 p 358

15– الزوزني :شرح المعلقات السبع ص 43

16 . عبد الله صولة :الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ،منشورات كلية الآداب بمنوبة 2001 ص364